الرضا
والدار الآخرة

الرضـا

والدار الآخرة

لا أَتَصَوَّرُ أنَّ أَحَداً تَتَحَقَّقُ له نِعْمَةُ **الرِّضَا** ـ كَمَا ينبغي ـ بغَيْرِ الإيمان بالدَّارِ الآخِرَة، وَمَا فِيها.

فالرِّضَا عنِ الله إيمَانٌ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، والدَّارِ الآخِرَةِ، وَإيمَانٌ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

فَالإيمانُ بالدَّارِ الآخِرَةِ رُكْنٌ مِن أَرْكَانِ الإيمان.

وَالدَّارُ الآخِرَةِ لَيْسَتْ بِمَعْزِلٍ عَن دُنْيَانَا.

وَدُنْيَانَا مَزْرَعَةٌ لَهَا، ومقدِّمة للوصُولِ إليهَا.

وَكُلُّ يَوْمٍ يَمْضِي ـ بَلْ كُلُّ لَحْظَةٍ تَسْرِي ـ تُقَرِّبُ من الآخِرَةِ، وتُبعِدُ عَن الدُّنيا.

« فَالدُّنْيَا وَالآخِرَةُ كَالمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَسَاعٍ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا اقْتَرَبَ من أَحَدِهِمَا بَعُدَ عَن الآخَر ».

وفي الآخِرَةِ الجَزَاءُ الحَقُّ، الذي لا يُمْكِنُ أنْ تُفْهَمَ حِكْمَةُ الخَلْقِ بغَيْرِهِ؛ فَبِغَيْرِ الجَزاء في الآخِرَةِ يَكُونُ الخَلْقُ عَبَثاً وَبَاطِلاً، وَحَاشَا أَنْ يَكُون.

إنَّ الجَزَاءَ في الآخِرَةِ هو الذي تَتَحَقَّقُ به الحِكْمَةُ في أنْ تكونَ الدُّنْيَا دَار امْتِحَانٍ واخْتِبَار.

فالدُّنْيا مُقَدِّمَةٌ، وَالآخِرَةُ نَتِيجَةٌ. وَلا فَصْلَ بَيْنَهُمَا.

وَاسْتِيفَاءُ الحُقُوقِ في الدُّنْيَا ـ وَحْدَهَا ـ أَمْرٌ يَصْعُبُ تَحْقِيقه.

وفي الدُّنيا تَتَنَازَعُ الأَهْوَاءُ والشَّهَوَاتُ، وَتَتَصَارَعُ المُيولُ والرَّغَبَاتُ.

وفي الدُّنيا ظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ، وَمُعْطَى وَمَحْرُومٌ، وَفِيها مُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ، وَمُفْسِدٌ وَمُصْلِحٌ.

فَهَلْ تُطْوَى صَفْحَةُ دُنْيَانَا دُونَ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ، وَحِسَابٍ وَجَزَاءٍ ؟!

إنَّ رِضَا الإنسانِ عَن ربِّه ـ وَهُو يُؤمِنُ بآخِرَتِه ـ يَجْعَلُ رَجَاءَهُ في العَدْلِ يَقِيناً لاَشَكَّ فيه؛ فَقَدْ يُظْلَمُ الإنسانُ مِن غَيرِه وَهُوَ يُبْغِضُ الظَّالِمَ، ويَكْرَهُ الظَّالمين، وَلَكِنَّهُ يَرْضَى عَن رَبِّه؛ لأَنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ حَقَّهُ لَنْ يَضِيعَ بين يَدَيْهِ. فَمَا فَاتَهُ هُنَا سَيَلْقَاهُ هُنَاك.

فَتَقْرِيرُ اليَوْمِ الآخِرِ ـ تَقْرِيراً قَاطِعاً في الاعتقاد والوَاقِع ـ يُفَسِّرُ لنَا كثيراً من الْمُبْهَمَاتِ التي لا تستقيمُ ـ أَبَداً ـ مَعَ حِكْمَةِ الخَلْقِ، وَإِحْكَامِ الصُّنْعِ، وَخَلْقِ الإِنْسَان.

يُفَسِّرُ لَنَا قَضِيَّةَ إِنْسَانٍ بَاتَ مَظْلُوماً، وَخَرَجَ مِن دُنْيَا النَّاسِ مُحْتَرِق الكَبِدِ، مَشْوِيَّ الفُؤَاد.

فَالعَدْلُ يَقْتَضِي أَنْ يُنْصَبَ الميزانُ، وَأَنْ يَتِمَّ الحِسَابُ، وَيَقَع الجَزَاءُ.

وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ الإسلامُ، وآمَنَ بِهِ الرُّسُلُ والمؤمِنُونَ مَعَهُم، وَهُمُ الرَّاضُونَ عَن جَمِيعِ الأَحْوَال.

والذِّينَ يَرَوْنَ غَيْرَ ذلك لَن يَنْقَطِعَ السَّخط مِن حَيَاتِهم، وَلَنْ يَتَوَفَّرَ لَهُمُ **الرِّضا** بِحَالٍ.

العَدْلُ يَقْتَضِي أَنْ يُنْصَبَ المِيزَانُ وإلاَّ كَانَ عَبَثُ الخَلْقِ أَوْسَعَ مَدَىً من أَنْ تَتَصَوَّرَهُ أَذْهَانُ البَشَر، وَكَانَ الإنسانُ غَيْرَ مَلُومٍ إِنْ هُوَ أَسَفَّ

بغَرَائِزِه عَن الحيَوَان.

وَلَكِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ يَحْسِمُ القَضِيَّةَ، وَيَحْكُمُ فِيها بِتَكْرِيمِ الإنْسَانِ، بِجَعْلِهِ مَسْئُولاً عَنْ عَمَلِهِ، مُلاَقِياً جَزَاءَهُ.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.[1]

وَالتَّقْرِيرُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ - مَع كَوْنِهِ يُكَرِّمُ الإنسانَ إلى أَبْعَدِ حُدودِ التَّكْرِيم، وَيُمَيِّزُه بالمسئوليةِ وَالجَزَاءِ عَن سَائِرِ المَخْلُوقات - يُفَسِّرُ أَيْضاً حِكْمَةَ الخَلْقِ، وَأَنَّ الإنسانَ خُلِقَ لِغَايَةٍ تَتَمَيَّزُ مَعَهَا خَصَائِصُ الإنسانِ، وَتَنْطَلِقُ مَوَاهِبُه.

وَهَذِهِ الغَايَةُ هي التي تَتَحَقَّقُ بِهَا الحياةُ.

الحَيَاةُ بِمَعْنَاهَا البَاقِي المُمْتَد. الحَيَاة بِأَصَالَتِهَا وَمَعْرِفَةِ خَالِقِهَا.

الحَيَاةُ، لاَ الْمَوْت « والنَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا »[2]

وَمَا أَحْكَمَ وَأَجْمَلَ وَأَصْدَقَ قَوْلَ الرسولِ ﷺ:

« واللّه لتموتُنَّ كما تنامون، وَلَتُبعثُنَّ كما تستيقظون، وَلَتُحَاسبُنَّ على ما تعملون، وَلَتُجزوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسُّوء سُوءً، وإنها لجنةٌ أبداً، أو لنارٍ أبداً »[3]

---

(1) الأنبياء: ٤٧.

(2) قول سفيان الثوري، رحمه الله تعالى.

(3) جمهرة خُطب العرب: ١٤٧/١.

بهَذَا الحقّ وَالحقِيقَة تَصلُحُ الحيَاةُ، وَيَتِمُّ التَّوَازُنُ والاعْتِدَالُ في دُنْيَا النَّاس، وَيَرْتَفِعُ النَّهَمُ الأَبْلَه، وَالجَشَعُ المَفْتُون، وَتَقُومُ الضَّوابِطُ الخُلُقِيَّة، التي تَحْجِزُ الشَّرَّ، وَتردعُ الفَسَادَ في دَاخِلِ النُّفُوسِ ـ أَوَّلاً ـ وَهي تَعْلَمُ أَنَّهَا مَسُوقَةٌ بِعَمَلِهَا لِسَاحَةِ حَقٍّ، وَمِيزانِ عَدْلٍ.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.[1]

فَتَقَرُّ عَيْنُ المظْلُومِ الذي فَاتَهُ الحقُّ في الدُّنْيَا، وَلَم يُنْصَبْ لَهُ مِيزانُ عَدْلٍ فِيها. وَيَخِيبُ سَعْيُ الظَّالِمِ، وَقَدْ وَجَدَ اللّهَ فَوَفَّاهُ حِسَابَه.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.[2]

والذي يَجْعَلُ الإنْسَانَ يَرْقُبُ ذلك إيمَانُه بربِّهِ، وَرِضَاهُ بحُكْمِ خَالِقِهِ وَعَدْلِهِ، وَيَقِينُه أَنَّ العَاقِبَةَ لا تَكُونُ إلاَّ لِمَن خَشِيَ اللّهَ وَاتَّقَاهُ، وَثِقَتُهُ أَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ هي الحياةُ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَبْقَى للذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهم يَتَوَكَّلُون.

لِذلِكَ قَلَّمَا تَرَى رَاضِياً عَن رَبِّه يَقْتُلُ نفساً لِيخلص من نِيرانِ حَسْرَةٍ وَأَلَمٍ.

قَلَّمَا تَرَاهُ سَاخِطاً على قَضَاءٍ، أَوْ مُخْتَالاً فَخُوراً بِنِعْمَةٍ وَعَطَاء.

إنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حَسَرَاتِ النُّفُوسِ لاَ يُطْفِئُ نِيرانَها إلاَّ **الرِّضَا** عَن اللّه، وَحُسنُ الاستجابَةِ لأَمْرِهِ، وَاليَقِينُ بِقَضَائِهِ؛ فَهُوَ يَرْجُو رَبَّهُ، وَيَذْكُرُ

---

(1) آل عمران: ٣٠.

(2) طه: ١١١، ١١٢.

فَضْلَهُ، وَيُعَانِقُ الصَّبْرَ على ذَلِكَ إلى وَقْتِ لِقَائِهِ، وَالنَّعِيم بِجَزَائِهِ.

فَلاَ يَسْخَطُ، وَلاَ يَقْنُطُ مَعَ شِدَّةٍ وَبَلاءٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ عَرَضٌ سَيَزُولُ، وَأَنَّ فِيه خَيْراً لَوْ أَحْسَنَ تَدَبُّرَهُ.

عَن أبي يَحْيى صُهَيْبِ بن سِنَانٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (1)

وقال ﷺ: « أشدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِيَ عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » (2)

فَبَلاءُ مَنْ حَسُنَ دِينُهُ دَلاَلَةُ حُبٍّ وَرِضَىً مِن رَبِّه.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ ـ في أَشَدِّ لَحَظَاتِ الابْتِلاء ـ: « إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي ».

وَمَن تَدَبَّرَ العَوَاقِبَ ـ وَهُوَ رَاضٍ عَن رَبِّهِ ـ رَأَى مِنَّةَ الله في طَيِّ المَكَارِه. وَكَمْ للهِ مِن مِنَّةٍ في طَيِّ المَكَارِه.

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾. (3)

---

(1) مسلم: كتاب الزهد والرقائق.

(2) الترمذي، كتاب الزهد، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(3) النساء: ١٩.